

كحل: مجلّة لأبحاث الجسد والجندر
مجلّد ٤، عدد ٢ (شتاء ٢٠١٨)

تشويه الأعضاء التناسلية ام البتر ام الختان؟ منظور امرأة نوبية

بقلم منة الأغا

ملحوظة:

كتب هذا المقال باللغة الانجليزية وتمت ترجمته إلى العربية. الورقة تحتوي على نزاعات بين الكاتبة واللغة الانجليزية في سياقها المجتمعي.

كأغلب النساء النوبيات اللواتي ولدن في قرى التهجير،^١ خضعت لإستئصال البظر خلال أولى أسابيع علي الأرض، على يد طبيب مدرّب ومتعلم ومرخص. غالباً ما كان الأطباء في مستوطنات النوبة قد عُيّنوا من شمال مصر؛ وقد تمّ إعتبارهم متحضرين وموثوقين ومُطلّعين غالباً، كونهم أحد العوامل "المحدّثة" التي وُعد بها النوبيين بعد إعادة إسكانهم. لكنهم لم يظهروا سوى القليل من المعارضة ضد تلك الممارسة. على العكس، تلك الممارسات عندما تمت بعد الإستقرار كانت على يد خبراء طبيّين، كانوا يقومون بزيارات منزلية لإجراءها على المولودات الحديثات وصغيرات العمر. كونهم في الغالب كانوا مسلمين، كان الأطباء أو الممرضون يقومون عادةً بقراءة بعض المراجع الدينيّة التي ترجح تلك الممارسة. بالرغم من أنّ الدولة المصرية والمرجع الديني المُعتمد لديها، أي الأزهر،^٢ يرفضون الممارسة بشدّة، إلى أن النقاش غير الرسمي بين المؤيدين والرافضين للممارسة ما زال جارياً، والحجج الباعثة على الإشمئزاز تصدر من الجهتين.

أمّي تذكر بأن العملية كادت تقتلني. لم أخف تلك القصص عن وقت لا أتذكره، وبالرغم من ذلك، كنت قلقة ترقّباً باللحظة التي سيتوجب عليّ مواجهة القرار الذي أُخذ عني. تخفيف وإدارة ما تركه ذلك "الختان" كان أكبر مخاوفي منذ بدأت بالتفكير في إملاكي لحياة جنسية. لذا، كما يفعل أغلب جيل الألفية، بحثت في جوجل: كتبت "ختان الإناث" بالإنجليزية، أمله أن أجد معلومات ذات صبغة إيجابية-الجنس. البحث لم يعطني إلا وصف لـ"تشويه الأعضاء التناسلية للإناث". لعدة صفحات، ظهرت على الشاشة أهوال تلك الممارسة، متخدمةً التعبير نفسه، "تشويه الأعضاء التناسلية للإناث". تصفحت المحتوى الدموي والتلصصي التي تعرّف "المتوحّش"، لأجد إدانة جامعة لممارسة تشويه الأعضاء التناسلية للإناث.

لم يصف المصطلح ما أشعره حيال نفسي. بالرغم من أنني دُرِبت على أن أشعر بالإنفصال عن هذا الجزء من جسدي، إلى أنني لم أشعر بأنّي شُوّهت. المصطلح الذي تمّ تعليمي ياه والذي سمعته تكراراً وأنا أكبر هو "الطهارة". يشمل هذا المصطلح الختان لكلا الجنسين ويحمل معه مزيج من المعاني (معقم، ونظيف، ومقدّس)، كما لديه طابع دينيّ بالتأكيد. هو نفس المصطلح الذي يُستخدم للوضوء قبل الصلاة. عكس الختان،^٣ كلمة مستخدمة مسبقاً وغالباً ما تكون في سياق الإدانة، الطهارة مصطلح يُستخدم في اللهجة اليومية من قبل أشخاص أصبحت هذه الممارسة عادية بالنسبة لهم. الكلمة الإنجليزية للـ"ختان"، وقد إكتشفتها في مرحلة لاحقة في

^١ بناء السد العالي في أسوان في الستينات أدى إلى إقتلاع وتهجير القرى النوبية ضمن الحدود المصرية بشكل كامل، بالإضافة إلى جزء كبير من النوبة السودانية. الدولة أعادت إسكان النوبيين في مستوطنات "حديثّة" سمّتها بنوبة الجديدة. لكن النوبيين سموها بالتهجير، أي المكان الذي هجروا إليه.

^٢ الأزهر هي مؤسسة دينية ممولة من قبل الحكومة المصرية، وهي أكبر سلطة رسمية فيما يتعلّق بالأمور الدينيّة في مصر. تأثيرهم يُترجم عبر قوانين ومحتويات سائدة. بالرغم من أنّ آراء المؤسسة قد تقلّبت تاريخياً، إلى أنّها تتدعي الإعتدال اليوم.

^٣ الختان هو المصطلح العربي لكلمة circumcision. نادراً ما تُستخدم في اللهجات اليومية. تُستخدم بالأحرى من قبل مؤسسات الدولة الإعلامية والنصوص الرسمية في سياقات مناهضة الختان.

حياتي، عادةً ما تصف تقنيات الممارسة بدلاً من أن تحمل أي قيمة معنوية. لكنّي إعتدتها كمصطلح في بحثي لأنّي أمنت حينها أنّ استخدام الكلمة الإنجليزية الأصل سيكون أكثر إفادة لأجد معلومات مفتوحة ثقافياً.

لابرييرا (٢٠٠٩) تضع مصطلحات كـ "ختان الإناث" و"تشويه الأعضاء التناسلية" و"البتر" في مواجهة بعضها البعض. فهي تجد أنّ استخدام كلمة "تشويه" في الأكاديميا يأتي بنتيجة عكسية كونها تخضع لتقييم نابع من النظرة الغربية، بينما تستخدم كلمة "الختان" عادةً ضمن المجتمعات التي تقوم بالممارسة لكي تماثلها بختان الصبيان. أمّا من جهة أخرى، فمصطلح "بتر الأعضاء التناسلية" يستخدم من قبل النشطاء لكي يتجنبوا عدم الوعي الثقافي الذي يحمله مصطلح "تشويه"، ولكنه مصطلح لا يزال يوصل حدّة الممارسة. أمّا مصطلح "تشويه الأعضاء التناسلية" فهو ملتبس بالنسبة لي؛ فالمصطلح يعامل المجتمعات التي تمارسه بلغة تحقيرية، كما أنّه يلعب دور "الحضارة"، أي الكيان الفوقي الذي يحق له تعريف وتحديد خصال الجمال والحضارة، وحتى الإنسانية. أو من بأنّ تلك الديناميكيات قد أنتجت بدايةً عبر العلاقات الكولونيالية. إستطرداً، تعريف تشويه الأعضاء التناسلية يأتي من العلاقات الكولونيالية الحديثة وحاجتها بصنع هويّات الضحية.

شخصياً، أعاني في تركيب مصطلح يعبر عن الممارسة، وأتأرجح بين المصطلحات الطبيّة، كإستئصال البظر، والختان في اللغة الإنجليزية في محاولة فاشلة للموضوعية. بالرغم من أنّها شارحة وتشرحيّة، إلى أنّ هذه المصطلحات لا تحتوي حقيقة موضوعية: مغزى ونتيجة هذه الممارسة، منقولة عبر الكلمات، ليست بخفية. أمّا في اللغة العربية، فأميل إلى تجنب استخدام أي مصطلح، كون كل المصطلحات تحمل أعباء معنوية أرفض الاعتراف بها، مما يجرنني إلى مقاومة تدريبي الأكاديمي الذي يدفعني نحو إيجاد وإستصلاح التسميات المناسبة. لا يمكنني أن أركب مصطلح لما هو عندي – أو ليس عندي – طالما حبيت. أرفض أن أعطيه إسم كما فعلت مع إبنتي. فشلي في تسميتها لا يمنعني من المناقشة ضد استخدام المصطلح السائد، تشويه الأعضاء التناسلية، بشكل واسع في الكتابات الأكاديمية وضمن وكالات الإنماء كوكالة الأمم المتحدة للنساء.

بالإضافة إلى ميولاتها الغربية النخبوية، فالدلالات الجمالية لمصطلح "تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية" تعقّمها عبر فصل الممارسة عن طبيعتها وهدفها الجنسيين. المصطلح يستحضر إلى ذهني صورة كاريكاتور لرجال ونساء في بدلات باهضة يجتمعون في مبنى باهض كي يستخلصوا خطط "إنمائية" للأشخاص اللواتي يشبهنني. هؤلاء الناس البيض لا يزالون يحملون معهم تراث أرستقراطي ينظر بدونية إلى الأمور الجنسية ويفضلون الإنشغال بالأمور المتعلقة بالتجميل. للسخرية، تعقيم وتطهير جنسانية النساء مرتبطان بالبتر للأعضاء التناسلية نفسه، والذي بحد ذاته يعتبر جنس عند النساء ولذتهم قذرين. بالإضافة لذلك، كلمة "تشويه" تجعل من الممارسة أمراً بعيداً عن التجربة الشخصية لشخص من سياق غربي، بالرغم من قرابته التقنية والأخلاقية لممارسات في الغرب، كالجراحة التجميلية للأعضاء التناسلية النسائية، والتي يجادل رودريغيز أنّها تهدف إلى جعل المهبل أكثر "فائدة" – وهي ذات سرديّة بتر الأعضاء التناسلية.

في أوائل مراهقتي، سألت أمّي لما وافقت على ختاني، خاصة لأنها كانت تُعتبر إمراة "متقفة" و"معاصرة". أجوبتها كانت تتغير عبر السنين، لكنها غالباً ما كانت تتمحور حول الجماليات: قالت بأن النساء اللواتي يمكن بظور كبيرة يشبهن الرجال، مما يجعلها عملية تجميلية. لم تكن تفسر لما وجدت لها حاجة في حالتها. إنّما كانت

تذكرني بأننا، النوبيات، متقدمات، بمعنى أننا لم نعد نجري الممارسات الفرعونية؛ الأكثر حدّة. كانت تلك التفسيرات التي تدّعي العلم مبتكرة، سردية متداولة تقف بين الثقافة السائدة في مصر والتقليد، وهو من آخر الأشياء التي ورثناها من أرض ضاعت. وكانت قد أنتجت من قبل جيل من النساء النوبيات اللواتي تعلمن في نظام مصر الدراسي الحديث، ولكنهن خضعن لسلطة تقاليدهن.

الحاجة لحجج منطقية وصياغة سردية ضمن النساء النوبيات – كأمي – قد ابتدأت تحت الضغط من قبل ثقافة نخبوية في مصر، تناقلها إعلام النظام والمنهاج الدراسي. تخاط هذه الصياغة المبتكرة إلى حد جعل الجماليات إجابةً على السرديات الكبرى المسيطرة حول "تشويه الأعضاء التناسلية للإناث". يمكن قراءة هذه السرديات المصاغة بشكل واضح في عمل فدوى الجويندي عن النساء النوبيات. ورفقتها، "إذا كان هذا وجهك، هل كنت تركتيه كما هو؟" الختان النسائي عند نوبيات مصر" (٢٠٠٦)، هي توثيق للنساء النوبيات وهنّ يناقشن سردية مناسبة، تتمحور حول الحقوق الجمالية كما يوحي العنوان، وهو ما تبقي الباحثة ذهنها منفتحاً حياله. مع هذا التفسير، الباحثة التي تملك قوة النشر عن وتعريف الأنوثة النوبية، تهدف إلى تجنب استخدام صفات كـ "بربرية".

حجة أمي، وهي حجة تُستخدم من قبل جيلها، كانت بمثابة دفاع "معاصر" عن تقاليدنا، خاصة عندما تُواجه بحملات ضد الختان على التلفاز المصري. كما أنها ردّ على السرديات التي جلبها الباحثون والأنثروبولوجيون أيضاً عند دراستهم للنوبيين منذ تشريدتهم في الستينات، والتي تستبعدهم عبر إيصالها النخبوي للرسالة. الحجة الجمالية، إذًا، تستخدم اللغة العلمية-الزائفة ومفردات الباحثين النخبويين. عند التأمل بالماضي، أجد أن سؤالي لأمي كان نتيجة السرديات النخبوية في الإعلام والأكاديميا. لم أكن أعني ثقل العبء ولا إلى أي مدى يصل ختاني، ولكني رأيت نفسي في عيني تلك المرأة البيضاء على التلفاز: إنسانة درجة ثانية ودليل على الجهل، موصومة على أيّ الفلاحة المختنة للأبد. لأني لم أضع اللوم على أمي بناءً على الجنسانية، حجتها الجديدة كانت مقبولة حينها.

الإبتكار في تلك التفسيرات عن بتر الأعضاء التناسلية بات واضحاً مقارنة بالحجج المختلفة لدى جدتي، وهي من جيل لم يكن بحاجة للنقاش أو الردّ على الإتهامات بالبربرية. جوابها جانني صريحاً مغفلاً: "لكي تصبجي فتاة جيّدة؛" "لكي تجدي السعادة مع زوجك؛" "لكي تصبجي مهذّبة" – كلها عنت، "كي تخمد رغبتك الجنسية". المغزى الحقيقي وراء الختان هو جعل المرأة "لاجنسية"، وبالتالي ضمان عذريتها، ثم، "فضيلتها". بينما سيُنزَع منها إهتمامها بالممارسات "القدرة"، ستبقى موقع إثارة جنسية وإنجابية. إنها إحدى وسائل التحكم بموارد النساء الإنجابية، خاصة الجنسية، في المجتمعات الأبوية. مشكلة بتر الأعضاء التناسلية بشكل أساسي هي في اللذة وإنتراع قدرة السلطة الحيوية في استخدام الأعضاء التناسلية للإناث.

^٤ يتم تقسيم الختان إلى ثلاث أنواع أساسية (كوبا ومواشر، ١٩٨٥) ^٥ يجدر الذكر أنه لاحقاً في حياتي، إعترفت أمي بأنّها ضعفت أمام جدتي من جانب والدي.

في وجهة نظر جدتي، لم تكن تسبب لي سوءاً، بل كانت تؤمن على إمتلاكها ثروة مسقبلياً. برأيها، "لاجنسانيتي" ستسمح لي، عندما أكبر، من أن أقايض بمواردي الإنجابية وإسم العائلة، ضمن نظام من القرى والزواج محكوم بشكل وثيق حيث لذة النساء مسخّفة والقيم المرتكزة على الرجل هي السائدة. عند مقارنة اسباب جدتي مع الآداب والسرديات الموثقة من النساء النوبيات بعد التهجير يظهر علاقة مباشرة بالتهجير الممنهج لهن، بسبب تغيّر الموارد الطبيعية التي تسببت به التدخلات البشرية في الطبيعة (أي بناء السد العالي). هذه التغيّرات دفعت بالرجال للعمل في المدن بينما بقيت النساء في القرى الفقيرة لتحمل الذرية والهوية النوبيتين.

يتكرّر بتر الأعضاء التناسلية للإناث لفرض السلطة الحيوية، وهي سلطة تهتم بالجسد والتنظيم حول "السلطة على الحياة". وهي تشمل المراقبة والتنظيم والحكم الطبّي والنفسي للأجساد والسكان (فوكو، ١٩٩٠). بالرغم من الحجج المختلفة بشكل صارخ للممارسة، إلى أنّها تتماشى مع النظرية الفوكولوية للسلطة الحيوية، كونها قد صُممت لتضمن الإستخدام الأقصى للحياة عبر إخضاع أجساد الإناث "لضوابط دقيقة وقوانين شاملة" (المرجع السابق، ١٣٧). من وجهة نظره، بتر الأعضاء التناسلية في قرية أفريقية هو موازي لإعادة تفعيل السلطة الحيوية (رودريغيز، ٢٠١٢)، تماماً كعمليات التجميل للأعضاء التناسلية المختارة في السياق الغربي الثري.

البحث حول النساء النوبيات في الستينات تضمّن نقاشات تتركز على اللذة. خلال مقابلات حميمة مع النساء النوبيات، تصارحن عمّا يعتقدنه بأنّ الختان يجعل النساء جميلات وضيقات، وبعضهن كنّ يخضعن لجراحات تجميل الشفرتين تحضيراً لعودة أزواجهن من العمل في المدينة؛ كما أنهن اعترضن على النساء المدنيات اللواتي نظرن لهن كفاتات (الجندي وكاليندير، ١٩٦٢؛ الجندي، ٢٠٠٦). بالرغم من إستخدام الحجج الجمالية، إلى أنّه من الواضح أن الأسباب التي دفعت إلى تلك الممارسات هي اللذة، عبر إزالتها من عند النساء لخدمتها عند الرجال. كانت بمثابة صفقة إجتماعية-إقتصادية يسيّرّها النظام الأبوي، حيث أنّ جسد الأنثى هو السلعة المتقايسة.

الجهل هي إحدى الصفات التي يصادفها الشخص ضمن تعريفات تشويه الأعضاء التناسلية للإناث، مما أجده غير صحيح. في الحقيقة، الممارسة قد بنيت على معرفة تشريحية شاملة، خاصّة عن دور البظر في اللذة عند النساء، مما جعل من بتر البظر العامل المشترك بين كل أنواع البتر المختلفة (كوبا ومواشر، ١٩٨٥). الجهل الوحيد الذي يمكن أخذه بالحسبان هو الجهل بالسلطة. لم تعلم النساء النوبيات ونساء الأرياف في مصر بأنّه هنالك حياة أو وصول للموارد أو سلطة خلف الحيطان التي بناها هذا النظام، وهو نظام يطلب بالمقابل أن يتخلّين عن جنسانياتهن كي يتحكمن في مواردهن الإنجابية. لبعض تلك النساء، هذه السلطة ليست موجودة حتّى اليوم؛ لا زلن محكومات من قبل تلك الأنظمة.

اليوم، أنا امرأة نوبية لدي طبقات من الإمتيازات لم تملكها نساء الأجيال السابقة، أو النساء اللواتي بقين في مستوطنات التهجير. تعطيني إمتيازاتي الموارد الفكرية الكافية لأواجه ختان الإناث نقدياً. كما أنّها تغدّي شعوري بالحق في اللذات الجسدية، وبالتالي بحثي عن موارد ثقافة جنسية للمختنات أملاً في إيجاد حليقات. ولخيبة أمني، أغلب الموارد مخصصة للجماعات التبشيرية الجديدة التي تهدف إلى "رفع نسبة الوعي" والتجريم. لا يمكننا أن ننكر أن العمل على التجريم أتى بنتائج إلى حد ما. لكن الباحثون قد وجدوا بأن دعوات التجريم، خاصة تلك

التي تحمل خوفاً من الغريب في نواياها^٦ (أوغي، ٢٠١٥) تدفع بالممارسة إلى المزيد من السريّة. من خلال التضييق على ثقافة بتر الأعضاء التناسلية، أدّى التجريم إلى جعل الممارسة أكثر خطراً. لكن الشخص لا يمكنه إلا أن يلاحظ قلة الدعم التي تعطى في الأيام العادية، خاصة في الحياة الجنسية، إلى الناجيات من بتر الأعضاء التناسلية.

أحد الإمتيازات التي أمتلكها هي الوصولية إلى المعلومات والإنترنت. إستغلالاً لهذا الإمتياز، بحثت عن أجوبة حول اللذة الجنسية في حالات إستئصال البظر في المحتويات البحثية والعامّة أونلاين. خلاصتي كانت أنّ العلم فشّلي. مع المعلومات الواسعة المتوفرة عن الموضوع على الشبكة، أغلب النتائج أخذت صيغة الإدانة. بعض الموارد الطبيّة إحتوت على جراحات لعكس أشد أنواع "الختان" قسوة. لكن الموارد التي تتناول جنسانية الإناث بعد خسارتهم البظر محدودة. الخطاب الإنمائي المعاصر الذي يظهر في أعلى نتائج غوغل^٧ يعامل الناجيات مثلي على أننا قضية خسارة. بالإضافة، الثقافة الجنسية للنساء اللواتي خضعن لاستئصال البظر ما زالت تتمحور حول الإيلاج، وهي أقل الممارسات لدّة لناجية إستئصال البظر.

أدعو الحليقات بأن يقيمن أدوارهن في التعامل مع "الختان" بشكل نقدي وأن يأخذن الأسباب الجذرية للممارسة بعين الإعتبار: أي التحكم باللذة لدى الإناث. إسترجاع وإستصلاح اللذة الجنسية لدى الناجيات هو من أصعب المساعي الحياتية، وهو أمر تختار العديداً عدم خوضه أساساً. أدعو الحليقات إلى تشديد الجهود لدعم الناجيات، ومساعدتهن في الإجابة عن الأسئلة الأساسية التي تبقى دون إجابة: هل تستطيع ناجيات بتر الأعضاء التناسلية من الوصول إلى النشوة. كيف تستطيع الناجية الإقبال على الجنس؟ هل بإمكاننا تمويل الجراحات العكسية، وكيف يمكننا الوصول إليها من الأساس؟ القيام بذلك سيكون مواجهة لثقافة تخنق جنسانية النساء وحقهن في اللذة البدنية عبر الختان الجسدي والنفسي.

^٦ على سبيل المثال، تجد أوغي أنّ المهاجرين الأفارقة في كندا يواجهون لغة تشريعية تدّعي مجابهة بتر الأعضاء التناسلية. لكن تلك اللغة تتضمن نبرة كارهة للغريب وغير محترمة تجاه المهاجرين والثقافة، كالنص الموجود في "The Quebec Charter of Values"
^٧ أدوات إظهار النتائج المثلى في أجهزة البحث عادةً ما تضع الجمعيات الأكبر والأثرى في أولى النتائج لضمان ظهور أكبر لها.

- Abusharaf, Rogaia Mustafa. *Female Circumcision: Multicultural Perspectives*. University of Pennsylvania Press, 2006.
- Assaad, Marie Bassili. "Female Circumcision in Egypt: Social Implications, Current Research, and Prospects for Change." *Studies in Family Planning* 11, no. 1 (1980): 3-16.
- El Guindi, Fadwa. "'Had This Been Your Face, Would You Leave It as It Is?' Female Circumcision Among Nubians of Egypt." *Female Circumcision: Multicultural Perspectives*. Ed. by Rogaia Mustafa Abusharaf. University of Pennsylvania Press, 2006. 27-46.
- Foucault, Michel. *The History of Sexuality: An Introduction, Volume I*. Trans. Robert Hurley. New York: Vintage, 1990.
- Kennedy, John G. "Circumcision and Excision in Egyptian Nubia." *Man* 5, no. 2 (1970): 175-91.
- Kouba, Leonard J., and Judith Muasher. "Female Circumcision in Africa: An Overview." *African Studies Review* 28, no. 1 (1985): 95-110.
- La Barbera, Maria Caterina. "Revisiting the Anti-Female Genital Mutilation Discourse Studies." *Diritto & Questioni Pubbliche: Rivista Di Filosofia Del Diritto e Cultura Giuridica* 9 (2009): 485-508.
- Ogoe, Sally. *Why Does Female Genital Mutilation Persist? Examining the Failed Criminalization Strategies in Africa and Canada*. MA Thesis. The University of Manitoba, 2015.
- Rodrigues, Sara. "From Vaginal Exception to Exceptional Vagina: The Biopolitics of Female Genital Cosmetic Surgery." *Sexualities* 15, no. 2 (2012): 778-794.